المحور الثالث

التموضع الابستمولوجي ومنهج الدراسة

يعد التموضع الابستمولوجي ضرورة لكل باحث عند ممارسة عمله البحثي والمعرفي، وذلك من اجل إضفاء الشرعية والقبول على العمل ونتائجه.إلا انه يخضع لتعديلات متعاقبة وبانقلابات مفاجئة أثناء العمل .فعادة الباحث يكون له ادراك ابستمولوجي قبلي أو أولي، لكن مهمل لانشغاله بصياغة الإشكالية وطريقة الإجابة عليها، أين يتأثر هذا الإدراك بالمحيط الخاص بالباحث (الاعتقادات، الخبرة، نفسية الفرد). ثم تتبع عمليات بحثه بتفاوض ما بين الأدبيات والميدان والأدوات المنهجية، خاضعا بذلك لتأثيرات عديدة لسيما التي تتعلق بمراجعة الأدبيات وصعوبة الميدان، وكذا الفرضية الابستمولوجية الخاصة به. هذه التأثيرات المختلفة ستقود الباحث إلى تموضع ابستمولوجي لاحق أو بعدي. وبالتالي فالباحث يقوم بتعديل تصميم البحث كلما تقدم في انجاز عمله نتيجة الصعوبات والفرص التي تظهر خلال مسار الدراسة.

لذا لتحقيق أهداف الدراسة واختبار فرضياتها بشكل علمي يجب إتباع أدوات منهجية ملائمة لتوجيه سير عملية البحث سواء تعلق الأمر بمنهجية تجميع ومعالجة البيانات أو أسلوب تحديد العينة ... هذه المراحل يجب أن يسبقها توضيح للموقف الابستمولوجي الذي ينظر به الباحث إلى طبيعة المعرفة المنشودة والمقاربة المنهجية المناسبة لهذا الموقف.

1 – التموقع الابستمولوجي للدراسة

ترتبط مصداقية نتائج الدراسات في بحوث العلوم الإنسانية بطبيعة العلاقة التي تقوم بين الباحث وموضوع دراسته، فكل باحث يتبنى بشكل صريح أو ضمني موقفا ابستمولوجيا ينظر به إلى طبيعة المعرفة التي يرغب في إنتاجها سواء تعلق الأمر بطبيعة هذه المعرفة أو سبل بلوغها، حيث يعد ذلك عاملا أساسيا في اختيار الأدوات التي يستعين بها لإجراء دراسته، وفي تحديد طبيعة المعلومات التي سيتناولها كمية أو نوعية أو مزيجا بينهما.

الابستمولوجيا التي هي علم نقد العلم وجزء من فلسفة العلوم الحديثة التي تسمح بممارسة نقدية وتمحيصه للمسلمات وللمعارف، وطرق إنتاجها وإثباتها والحكم على شرعيتها، تسمح بمساحة حرية فكرية للباحث

للتعبير عن افتراضاته ونظرته للمعرفة العلمية ومقامها وكيفية إنتاجها ومدى علميتها، وانطلاقا من هذه التصورات التي تحدد توجه الباحث نحو المعرفة، يتم اختيار موضوع البحث وطرق دراسته ، وكذلك خصائص المعرفة التي سينتجها ومدى علميتها وصلاحيتها في هذا المجال، ومن ثم تتحدد المناهج التي يمكن اللجوء إليها للولوج للمعرفة ومن ثم المقاربات التطبيقية التي تترجمها.

واشتقت الابستمولوجيا من المصطلح اليوناني (Epistem) الذي يترجم بمصطلح علم وأحيانا بمصطلح معرفة، وتتصل اتصالا وثيقا بعلم الوجود أو بالأنتولوجيا (Ontologie) باعتبارها تنطوي على فلسفة الواقع، وترتبط كذلك بالمنهجية (Méthodologie)، فهي نظرية المعرفة العلمية التي تسعى إلى ترقية السبل التي تسمح بإنتاج المعرفة وتطويرها، وتهتم بكيفية تكوين المفاهيم والنظريات العلمية، وهيكلة المناهج التي تتبناها البشرية لإنتاج العلم. كما توصف بأنها فلسفة التطبيقات العلمية في ظل شروط صلاحية المعارف النظرية، أين تضفي الشرعية على الأبحاث حول ظاهرة ما. وبذلك فهي تحاول الإجابة على التساؤلات التالية:

- ✓ ما هي طبيعة المعرفة؟ هل هي وضعية، تفسيرية أو بنائية؟
- ✓ كيف تكون أو تنتج المعرفة؟
- ✓ كيف تقدر قيمة المعرفة وصحتها؟

وتهتم علوم التسيير بعملية تصميم الأنشطة التنظيمية المحددة الأهداف، أين تصب جميع مشاريع البحث في علوم التسيير في خانة معرفة وتفسير الظواهر الاجتماعية في المنظمات، ومنح الأطراف المعنية الوسائل اللازمة لفهم وتفسير الحقائق.

توجد تصنيفات معينة لنماذج البحث في علوم التسيير لكن يتفق أغلب الباحثون على تبني ثلاث نماذج أساسية هي النموذج الايجابي ويدعى أيضا بالوصفي أو الوضعي أو الواقعي (le paradigme positiviste)، النموذج التفسيري (le paradigme interprétativiste)، النموذج البنائي (le paradigme constructiviste)، هذه الأخيرة كما أشار (Kuhn, 1983) تمثل نماذج أو مخططات فكرية أو إطارات مرجعية التي يمكن للباحثين في علوم المنظمات أن يندرجوا ضمنها، أين يندرج موضوع الدراسة ضمن أحد هذه النماذج مع إمكانية المزج بينها لإثرائه. ويمكن توضيح هذه النماذج فيما يلي:

- **النموذج الايجابي:**

يسيطر النموذج الايجابي بشكل عام على غالبية الأبحاث في علوم التسيير، كونه أكثر واقعية، حيث توجد الحقيقة في نفسها ولها منشأها الخاص. والباحث يحاول معرفة هذه الحقيقة المستقلة عنه، وبالتالي موضوع البحث مستقل عن ذاتية الملاحظ أو المجرب. وبذلك فالعالم الاجتماعي أو المادي يبقى خارج إدراك الفرد، وهذا الإدراك وحده هو الذي يتميز بالموضوعية. هذه الاستقلالية بين الباحث والموضوع تسمح للايجابيين بوضع المبدأ الوضعي الذي ينص على أن الملاحظة الخارجية لموضوع ما لا يجب أن تؤثر على طبيعته.

مما سبق يمكن القول أن الحقيقة الوحيدة التي يأخذها الايجابيون بالاعتبار هي الحقيقة التي تتم ملاحظتها، وأننا فقط أمام أنتولوجيا واقعية تجريبية (Ontologie réaliste empirique)، أين ترتكز الحقيقة على تماثل البيانات التي أعدها الباحث عن طريق الملاحظة مع الواقع.

يرتكز هذا النموذج على حيادية التحليل والموضوعية، كما أن الفرضيات تكون محددة، ويعتمد بشكل كبير على المنهج الكمي، كما يتلاءم مع كل من الطريقة الاستنتاجية

يعد البراديقم الاكثر استعمالا في علوم التسيير، لأنه الاكثر واقعية، فحسب هذا النموذج توجد حقيقة مستقلةعن الباحث التي ينبغي كشفها ومعرفتها عن طريق الخبرة العلمية او الطرق التجريبية

- **النموذج التفسيري:**

اقترح النموذج التفسيري كنموذج معارض للنموذج الايجابي، حيث يهدف إلى تطوير فهم للظواهر انطلاقا من تفسيرات ذات مواقف حدسية. وهناك من يجمع بينه و بين النموذج البنائي ، و يعتبرونه نموذج بنائي معتدل بالمقارنة مع النموذج البنائي الذي يعتبرونه بنائي جذري، لأن أوجه الاختلاف بينهما بسيطة ومحدودة، كما يسميه البعض بالوظيفي Fonctionnaliste أو بالمدرسة الهيكلية الوظيفية L'Ecole Structuro-Fonctionnaliste التي تضم النموذجين معا التفسيري و البنائي . هذين الأخيرين يعتبران الأنسب لعلوم التسيير لكونهما يسمحان بالتدخل المباشر للباحث في الميدان.

ويقوم على أساس أن الهدف من المعرفة المنتجة هو فهم الواقع عن طريق التفسير، ويعتمد على فرضيات نسبية (سببية)، كما يتلاءم أكثر مع المنهج الكيفي، ويعتمد على الذاتية وتدخل الباحث للوصول إلى المعرفة بحيث يظهر في البحث ارتباط كبير بين الباحث والظاهرة المدروسة.

فوفق هذا النموذج يشكل الأفراد معرفة لعالمهم عن طريق التفسيرات التي يضعونها بأنفسهم، هذه التفسيرات تقود أفعالهم فيما بعد، وتكون السلوكيات والمعاني غير قابلة للفصل، وهي تشكل العالم الاجتماعي (المنظمة)، والباحث لا يسعى لوضع قوانين عامة للظواهر المدروسة بقدر ما يسعى لفهم الحياة الاجتماعية الملموسة ولذلك فهو يحاول إعطاء تفسير ملائم لها.

إذن تمر عملية إنتاج المعرفة عبر فهم المعنى الذي يقدمه الأفراد للواقع ، وبالتالي لا يتعلق الأمر بشرح هذا الواقع ولكن فهمه عن طريق التفسيرات التي يقدمها الأفراد ، لذا لا بد من الأخذ بعين الاعتبار نواياهم، معتقداتهم، الأسباب، ... الخ

والامر هنا لا يتعلق بشرح الحقيقة وانما فهمها عن طريق التفسيرات التي يقدمها الفاعلون المعنيون بها مع الاخذ بعين الاعتبار تصوراتهم وانتظاراتهم، وذلك لاعطاء تفسير ملائم لهذه الحقيقة الاجتماعية .، وهذا يعني ان هذه الاخيرة ليست مطلقة اي انها قابلة للتغيير . فالظرف يؤثر على المعنى المعطى.

- **النموذج البنائي:**

حسب هذا النموذج فالأفراد يشكلون واقعهم الخاص بهم (العالم الذي يحيط بهم) ، وذلك بوضع أنفسهم مكان الظاهرة المدروسة، وهي أساسا ذاتية. بهذا، فإن الواقع المدروس يتبع الطريقة التي ينظر بها إليه الفرد.

ويمكن القول إذن أن النموذج الذي يندرج فيه الباحث يؤثر على تفسيره للواقع وبالتالي على تكوين المعرفة، فكما يفكر الأفراد بالنسبة لعالمهم ولحياتهم عموما يؤثر ذلك على تصرفاتهم وردود أفعالهم ، ولا يمكن تفسير سلوكياتهم إذا لم يكن الباحث مبدئيا قادر على فهم كيف يفكرون. لذا فإن التحدي يكمن هنا في نجاح الباحث في فهم الظاهرة المدروسة حسب وجهة نظر الأفراد محل الملاحظة ومحاولة اكتشاف الأشكال المشتركة للفهم بينهم.

إذن يقوم هذا النموذج على اكتشاف المعرفة بحيث يتم إنتاجها من خلال تفاعل الباحث مع موضوع البحث، لأن العالم مشكل من عناصر شخصية، اجتماعية، ثقافية...الخ ، والمعرفة تنتج من هذا التعقيد عن طريق المعاني المعطاة للواقع ، وتكون الفرضيات عمدية بحيث أن المعرفة المنتجة تكون ذاتية وظرفية ونسبية، ويعتمد بشكل أكبر على المنهج الكيفي.

ويمكن تلخيص المنطلقات الابستمولوجية للنماذج الثلاثة في الجدول الموالي:

جدول: خصائص النماذج الابستمولوجية

	النموذج الايجابي	النموذج التفسيري	النموذج البنائي
هدف البحث	اكتشاف الحقيقة والقوانين التي تحكمها	فهم معاني الاعوان التي يربطونها مع الحقيقة الاجتماعية	بناء حقيقة انطلاقا من التجربة الخاصة للباحث في سياقها
ما هي طبيعة المعرفة	الحقيقة عبارة عن معطيات موضوعية مستقلة عن الموضوع الملاحظ	الحقيقة مصممة ومفسرة من خلال مواضيع معروفة	الحقيقة هي: بناء مواضيع معروفة أو المشاركة في بناء مواضيع تفاعلية
	فرضية واقعية أي وجود منشأ خاص(essence propre) لموضوع المعرفة	فرضية نسبية لا يمكن الوصول إلى منشأ الموضوع (بنائية معتدلة أو	
طبيعة الحقيقة؟	استقلال الباحث عن الموضوع (objet/sujet) فرضية محددة (déterministe) العالم مشكل من ضروريات	تبعية الموضوع للباحث فرضية قصدية (عمدية)	
العلاقة بين الباحث والبحث	**الاستقلالية** الباحث لا يعمل على الحقيقة الملاحظة. استقلالية الباحث عن الموضوع، حيث يلاحظ الباحث الظاهرة دون اي تدخل او تغيير	**التقمص** الباحث يفسر ما يقوله أو يفعله المعنيون بالدراسة، الذين يشرحون بأنفسهم موضوع البحث تفاعل بين الباحث والموضوع	**التفاعل** الباحث يشارك في بناء التفسيرات و/أو المواضيع مع الأطراف المعنية تفاعل الباحث مع الظاهرة

	الاكتشاف	التفسير	البناء
كيف تنتج المعرفة؟ (طرق المعرفة العلمية)	البحث معد في صيغة "من أجل أي سبب؟" التوجه المفضل: الشرح، الوصف،	البحث معد في صيغة "ما هي الدوافع؟" التوجه المفضل: الفهم	البحث معد في صيغة "من أجل أي غاية؟" التوجه المفضل: البناء

المصدر: اعتمادا على: – Raymond-Alain Thiétart et coll, op cit, pp 14 15

- GIORDANO Y, **Les spécificités des recherches qualitatives**, in GIORDANO Y. (Coord.), **Conduire un projet de recherche : une perspective qualitative**, Paris, EMS Management & Société, 2003, pp 11-39.

وقد تباينت مواقف الباحثين في مجال علوم التسيير بين من يرى بضرورة تبني نموذجا معينا من بين النماذج الثلاثة الايجابي والتفسيري والبنائي، وبين من يرى أنه من الممكن تبني تموقعا هجينا يجمع بين أكثر من نموذج وفق مقتضيات البحث، وهو الخيار المقبول عمليا خاصة وأن العديد من الدراسات التي تبنت النموذج الايجابي ثبت فيما بعد أنها تضطر لاستعمال طرق وأساليب ذات طابع بنائي وتفسيري، والعكس صحيح كذلك. لذا فإن تنوع النماذج يعد فرصة للباحث لإثراء معارفه بما تتيحه له من إمكانات لإدراك مختلف جوانب الحقيقة المعقدة التي تهتم بها علوم المنظمات.

2 منهج الدراسة

ينظر للمنهج على أنه الطريقة التي سيسلكها الباحث في الإجابة عن الأسئلة، من خلال تحديده لطرق ولإجراءات جمع وتحليل البيانات، ويقوم بتحديد تصميم البحث، والذي يختلف باختلاف الهدف منه فقد يكون لاستكشاف عوامل معينة لظاهرة ما، أو وصفها وتحليلها، أو إيجاد السبب أو الأثر أو العلاقات بين مجموعة من العوامل.

ويختلف الباحثون حول تصنيف مناهج وأساليب البحث العلمي ولو أن هناك اتفاق على العديد من الأنواع، حيث تنقسم المناهج في علوم التسيير إلى نوعين هما المنهج الاستكشافي والمنهج الاختباري، والذين يقصد بهما ما يلي:

أولا: المنهج الاستكشافي (Exploration)

يتعلق المنهج الاستكشافي بإيجاد نقاط ترابط نظرية جديدة بين المفاهيم أو إدماج مفاهيم جديدة في مجال نظري معين، فهو تمثيل للطرق المنهجية الكيفية ويضم استكشاف وتعميق البحث بهدف الفهم والتوقع والرغبة في عرض نتائج نظرية جديدة لإدماج ظواهر وعناصر نظرية مختلفة. ويمكن أن يستخدم في النماذج الابستمولوجية الثلاث الايجابي والتفسيري والبنائي. كما يمكن أن يتم بثلاث طرق هي النظرية، التجريبية، الخليطة.

وغالبا ما يتحقق الاستكشاف من خلال تبني أسلوب الاستقراء الذي ينطلق من ملاحظة الجزئيات ثم يعممها بهدف الوصول إلى نظرية أو قاعدة عامة.

يمثل المسار الذي يهدف من خلاله الباحث مهما كان توجهه الابستمولوجي الى اقتراح نتائج نظرية مبدعة

ثانيا: المنهج الاختباري (Test)

يتعلق المنهج الاختباري بالعمليات التي تمكن الباحث من مقارنة موضوع نظري مع الواقع بهدف تقييم صحة فرضية أو نموذج أو نظرية بهدف تفسير وشرح العلاقات الموجودة بين عناصر الظاهرة المدروسة باستخدام مختلف الطرق التجريبية مثل الملاحظات، الاستبيانات، المقابلات... ، أي وضع موضوع نظري تحت التجربة العملية.

ويقوم غالبا على أسلوب الاستنباط أو الافتراض الاستنباطي الذي ينطلق من القوانين أو الافتراضات ليستنبط منها الحقائق، فهو يعتمد على فكرة أساسية مفادها أنه إذا كانت الفرضيات المشكلة صحيحة، فإن النتيجة تصبح بالضرورة صحيحة. أي أنه يبدأ بالنظريات التي تستنبط منها الفرضيات ثم ينتقل إلى عالم الواقع بحثا عن البيانات لاختبار صحة هذه الفرضيات.

3 -أنماط التفكير المستخدمة في الدراسة

أنماط التفكير (Le Raisonnement) هي عملية معرفية تسمح بالحصول على نتائج جديدة أو التحقق من فعل معين انطلاقا من الفرضيات التي بنيت عليها الدراسة. أين تفضل النماذج البنائية والتفسيرية التحليل الاستقرائي (Induction)، في حين تميل النماذج الايجابية إلى التحليل الاستنتاجي (Déduction)، ويقوم الاستكشاف على نمط الاستقراء، ويقوم الاختبار على نمط الاستنتاج، حيث:

- **النمط الاستقرائي:**

عملية نقوم فيها بمراقبة ظاهرة معينة ونحصل على النتائج بناء على ذلك. أي أننا نقوم منطقيا ببناء افتراضات على أساس الحقائق التي تمت ملاحظتها، وبالتالي يتم الانتقال من ملاحظات جزئية إلى نتائج عامة.

هو استدلال تخميني او حدسي يسمح بالمرور من الخاص الى العام. من الاحداث الى القوانين، من الاثار الى الاسباب، من النتائج الى المبادئ

- **النمط الاستنتاجي (الاستنباطي):**

هو العملية التي نصل من خلالها إلى نتائج مبررة مبنية على تعميمات منطقية لحقائق معروفة. أين تبدأ من تحليلات نظرية تترجم إلى فرضيات قابلة للقياس، وتنتقل من العام إلى الخاص بتطبيق نظرية عامة على مجموعة أفراد أو مجموعة حالات.

4 المقاربة المنهجية للبحث

يعتمد اختيار المقاربة البحثية على التموقع الابستمولوجي للباحث وعلى نمط التفكير، إضافة إلى موضوع وسياق البحث. أين يعتمد النموذج الايجابي على الطرق الكمية للتحليل والنموذجين البنائي والتفسيري على الطرق النوعية. وحتى لا ينغمس الباحث أكثر في الأساليب الكمية التي تبعده عن موضوع دراسته كونها تهمل كثيرا التعقيد المرتبط بالظواهر الخاصة بالمنظمات، وتركز أكثر على الدقة والنظامية، ' طورت طرق أخرى أكثر دقة مثل دراسات الحالة أين يكون الباحث أكثر قربا من موضوع بحثه، حيث يمثل البحث عن المعلومات مرحلة استكشافية (Exploratoire) ومعالجة هذه المعطيات مرحلة تأكيدية (Confirmatoire) للاستفادة من الطريقتين الكمية والنوعية (طريقة المتغيرات + طريقة دراسات الحالة)، لذا يتم اللجوء لما يعرف بالتكامل أو المثلثية (La Triangulation) بحيث يتحدد اختيار الطريقة البحثية حسب طبيعة الموضوع. ويقصد بهذا التكامل استخدام أساليب مختلفة لدراسة نفس البعد من الظاهرة المدروسة من خلال الاستخدام المشترك للمعالجة النوعية والطرق الإحصائية.

ويمكن الرجوع للطرق الكمية والنوعية في الاستكشاف أو في الاختبار، أي بالتوفيق بينها طالما الهدف مشترك هو دائما تمثيل الواقع بطريقة صحيحة و صادقة. كما أن استخدام الطرق التجريبية (ملاحظات، استبيان، تحقيقات، مقابلات...) يتم من أجل استكشاف الواقع ثم بعد ذلك يمكن اختبارها بالطرق الريا ضية والإحصائية، إذا يمكن استخدام الطريقتين معا في نفس الوقت، فالا ستكشاف والاختبار هما طريقتان تدعمان إعداد المعارف في إطار الطريقة المقارنة التي تهدف للتكامل بين مختلف الطرق الكمية (طريقة المتغيرات) و الكيفية (طريقة دراسات الحالة) من أجل خدمة أغراض البحث العلمي.

ويمكن توضيح ذلك في الشكل الموالي:

الشكل رقم (05-01) تكامل مقاربات البحث

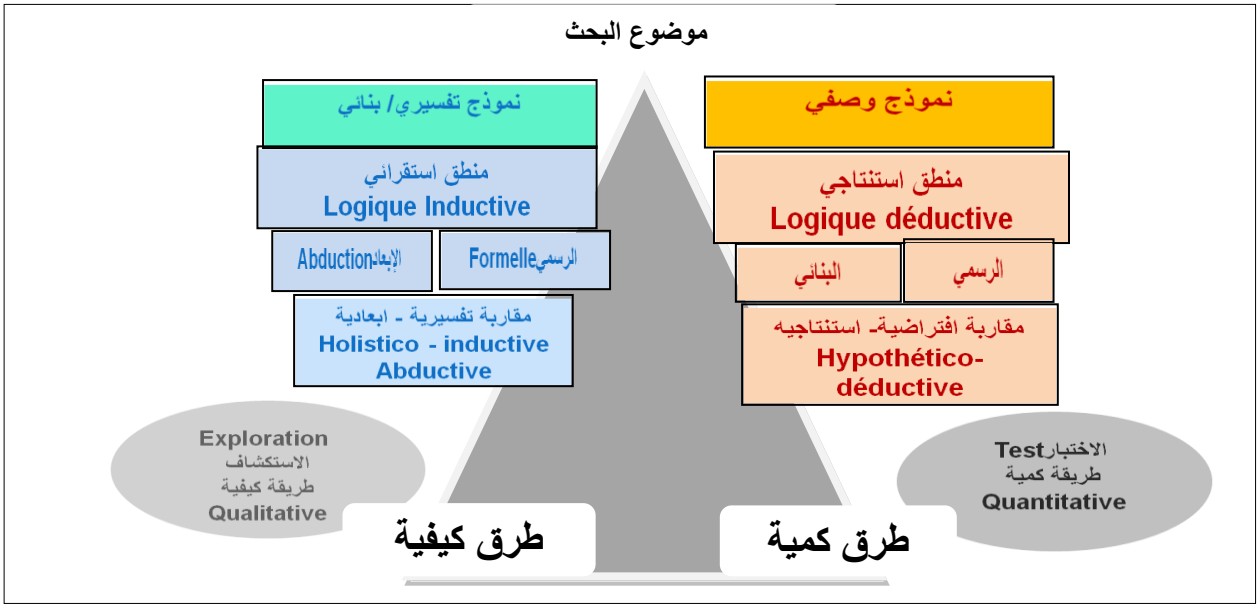

المصدر: دبلة فاتح، مرجع سابق، ص 16.

حيث أن:

- **المقاربة النوعية:**

هي بحث ذو صفة استكشافية وبشكل مكثف، يركز على المتغيرات النوعية التي يصعب معالجتها إحصائيا، ويهتم بتشكيل علاقات سببية في ظروف معروفة. ويعرف البحث النوعي على أنه نوع من البحوث التي تقدم نتائج غير مبررة بوسائل وأدوات إحصائية أو أي أساليب كمية أخرى، ولكن هذا النوع من البحوث تقدم نتائج مبررة من خلال العالم الحقيقي أين تظهر الظاهرة في طبيعتها، لذلك فعادة ما يستخدم المنهج الكيفي في مقاربات الطبيعية والتي تحاول فهم الظاهرة في وضع وسياق خاص ، كما أن التحليل النوعي يعتمد على أنواع مختلفة من المعرفة على عكس التحليل الكمي الذي يعتمد على معرفة موحدة كون أن كل جزء يتوافق مع منهج ومقاربة معينة

تعتمد على دراسة وقراءة البيانات والاحداث بأسلوب غير كمي، حيث لا يتم تحويل البيانات الى ارقام كما في المقاربة الكمية. وانما يتم الحصول على النتائج من واقع ملاحظة وتحليل الاحداث والمواقف والصور والوثائق....

- **المقاربة الكمية:**

ذات طبيعة تحققية، أكثر اتساعا، يرتكز على جمع البيانات مباشرة في شكل متغيرات كمية باستخدام عدة أساليب إحصائية، وتهدف إلى فهم ظاهرة أو حقيقة طبيعية شكلها السياق الاجتماعي. فعادة ما يتماشى المنهج الكمي مع المقاربة الواقعية الذي يقودنا إلى النظر إلى العالم على أنه تراكم للحقائق القابلة للقياس والملاحظة، والذي يعتمد عادة على الطرق التجريبية والقياسات الكمية لاختبار مدى إمكانية تعميم نتائج الفرضيات على المجتمع، كما أنه عادة ما يركز على تحليل العلاقات السببية بين المتغيرات.

تنطلق من البراديقم الايجابي الذي يرى ان الحقيقة لا توجد سوى في حالتها الملموسة والمستقلة عن كل رأي أو موقف. فالبحث الكمي يبحث عن الاسباب والحقائق من منظور اوسع واشمل وعن العلاقات بين المتغيرات حتى يمكن تفسير علاقات السبب والنتيجة بين هذه المتغيرات . فالمعلومات تكون في شكل رقمي يمكن تصنيفها وتلخيصها. كما يتم تحليل البيانات بالاعتماد على عمليات رياضية ثم يتم عرض النتائج النهائية في شكل احصائي